

أسئلة الذات في رواية (أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري

Questions of self and Identity in the novel “Children of the Ghetto: My name is Adam” by Elias Khoury.

ط.د. أسماء جعيل¹/د.فاطمة الزهراء عطية²

1المركز الجامعي بريكّة-،(الجزائر)، djailasma1@gmail.com

2 المركز الجامعي بريكّة-،(الجزائر)، fatimaattia@cu-barika.dz

تاريخ النشر: 2021/12/30

تاريخ المراجعة: 2021/10/08

تاريخ الإيداع: 2021/08/10

ملخص:

لا تخلو حياتنا من الأسئلة والبحث المستمر عن ذلك الحيز الداخلي، الذي يحكمنا ويمثلنا حضورا شخصيا كاسم، جسد، لغة، ذات حاضرة، وهنا نحن عاجزون عن تحديد ماهيتنا وطبعنا، أو بالأحرى لا نستطيع العثور على ذاتنا الحقيقية، فلطالما وجد الإنسان نفسه حائرا حول وجوده فكيف لا يفكر في ذاته؟ إن كانت ذاته غائبة معه؟ إن كانت حقيقته مهمة؟ فكيف لا يبحث أو يسأل؟ فمن نحن دون ذات؟ أترانا حقيقة؟ أم ظلالا لذواتنا؟

ومن هنا، صارت الذات أساسا لوجود الفرد فعليا واحتياجا طبيعيا لكل إنسان يريد أن يحيا بسلام داخل واقع لا يرحم، فحقيقته مبنية على حقيقة الذات، هذه الأسئلة طرحتها بقوة رواية أولاد الغيتو التي تحكي حقيقة الإنسان الفلسطيني الحاضر جسدا والغائب أسما وروحا دون رسوخ، دون اسم مسلوب الحرية، مسلوب الذات بفعل عدوان الاحتلال الصهيوني.
الكلمات المفتاحية: أسئلة الذات؛ الأنا؛ الآخر؛ الذات؛ الهوية.

Abstract;

Life has endless questions, and constant search for that internal space That governs us and represents us as a personal presence, as a name, as a body, as a language, as a present self, therefore, we are unable to define our Essence, and our character, or rather, we cannot find our true self, as man has long found himself bewildered about his existence, how can he not think about his own self? If it was absent with him? If his truth as a whole is vague? How can he not search and not ask? Who are we without a self? Who are we? are we real? or a shadow of ourselves? Therefore, the self became the basis for the actual existence of the individual; and a natural need for every human that wants to live in peace within an unmerciful reality, as his truth is based on the self-truth.

* المؤلف المراسل.

These questions were strongly posed by the novel: children of the ghetto, which tells the reality of the Palestinian man, present in body and absent in name and soul without solidity, without a name, robbed of freedom, robbed of self, through the aggression of the Zionist invasion.

key words : self-questions, ego, the other, self, Identity

تقديم:

كثيرا ما نتنابنا لسعات الأسئلة، التي لا تنتهي حول موضوع ماهيتنا ووجودنا ككل، فكيف لا نتساءل إن كنا نعيش في واقع مليء بالفوضى والمشاكل والحروب.. وغيرها من معيقات الواقع، فالإنسان ابن بيئته كما هو معروف ينتمي إليها ويتأثر بكل ما يعترضها من تغيرات وظروف، ومشاكل، فعلى سبيل المثال: الحروب ومالها من دور أساس في عملية الهجرة بنوعها (الهجرة داخل الوطن)؛ ونعني بها اغتراب الإنسان مع ذاته؛ أي يصير لا منتميا لذاته (فاقدا لأناه)، أما (الهجرة الثانية) فخارج حدود أرض الوطن، ما يضيف على الإنسان المهاجر نوعا من الاغتراب غير المباشر، وهو ممثل في ظاهرة الالتباس في الآخر قصد ماذا؟ قصد طمس الهوية الحقيقية؛ لأنها صارت بمثابة العائق في طريقه، وموت أو انتحار بطيء، ما يدفعه لطمس ذاته بغية النسيان.

وهنا، تبدأ رحلة البحث؛ أي رحلة الإنسان الملتبس بزي الآخر الغريب عنه، ما يسقطه حتما في فرضية الضياع والتعددية الهوية، وهذا مشكل سنعالجه في مقالنا، الذي نبنيه - وحياتنا ككل - على الأسئلة التي لا تنتهي عن ماهيتنا ومن نكون؟ وسط عالم غريب مزدوج ومتاهي يستدعينا بقوة لفوضى الأسئلة، أو الجنون المعرفي في ظل الغرابة والامتزاج الثقافي فمن نحن في ظل التشظي؟ وهل صرنا عددا من الذوات لا ترضى إلا بالتعددية الهوية؟ وكيف نحن مع ذواتنا الأصلية؟ أو صرنا أشباحا مع ذواتنا؟

هاته الأسئلة تلقائية تفرض حضورها بقوة على الذهنية الإنسانية، فيها ننسجم مع ذواتنا ومحيطنا فنصير حاضري الذات لا غائبين.

1/ مفهوم الذات:

يظل الإنسان كائن غامض مثير للجدل (الفريد)، فهو مزيج بين ما هو واقعي خارجي، وما هو داخلي غامض؛ أي هو عبارة عن تركيبة من الأشياء الداخلية اللامرئية التي تحركه وتشمله ككل؛ أي هي المسيطرة والمسؤولة على أفعاله؛ فالذات البشرية ليست عبارة عن كتلة صلبة، أو ماهية بسيطة، إنها مركب ذو طبقات بعضها فوق بعض، وكلما تهياً لك أنك بلغت القعر وجدت أن هناك طبقة أعمق لم تستطع الوصول إليها وهكذا¹، فمن المعنى أعلاه، نكتشف أن الذات الإنسانية حيز غامض يثير حفيظة الدارسين ومحلي النفس البشرية فلحد الساعة هم عاجزون عن معرفة حقيقته الداخلية، بالرغم من محاولاتهم العديدة، لا نقول لم يتوصلوا لشيء؛ بل أزاحوا لبسا طفيفا عن هذه الحقيقة المغيبة، أو الهلامية، المركبة بين الذات وما أعمق منها؛ والمقصود هنا الأنا، فما المقصود بالأنا؟ وما طبيعة عملها؟

2 / مفهوم الأنا:

تعد الأنا ذات واعية أو "مجموعة حالات نفسية متغيرة ومتصلة معا في رأي البعض، ولذلك فمنهم من يميز الأنا كجوهر من الأحوال النفسية، فيعتبرها حقيقة النفس والقوة الجامعة لتلك الأحوال النفسية، إلا كون الأنا وحدة للذات المنطقية وحسب؛ بل هي المبدأ الذي ينسب إليه الفرد حالته وأفعاله"2، فالأنا متحكم أساس في العمليات النفسية والذهنية للإنسان (الفرد)، وما الذات إلا وسيلة تساعدنا في خلق بصمة ووجود الإنسان؛ أي أن الأنا مسيطرة ومتحكمة في دواخل الإنسان، لكنها تبقى عاجزة دون ذات، أو بتعبير آخر؛ لا ذات دون أنا، ولا أنا دون ذات، فكل منهما تكمل الأخرى وهكذا، وهنا تتجسد عندنا إنسانية الإنسان وحضوره، والآن وجب علينا معرفة تلك العلاقة القائمة بينهما في العنصر الموالي.

3 / علاقة الذات بالأنا:

مما لا شك فيه، أن الذات موجودة في كل كائن، مهما عدّ غامضا، أو غريبا، أو حتى مجهولا، وهو كائن يملك (أنا) داخلية تحركه، فالإنسان مهما كانت لديه (ذات)، لديه (أنا)، فالأنا تكمل الذات، والذات بدورها تكمل (الأنا)، في شكل علاقة ترابطية حلقيه (ذات) و(أنا)، ومنه، "فالذات الإنسانية تصطبغ بصبغة الأنا وتمتزجان معا، وتتجانسان مشكلتان بذلك إنسانا ذا هوية"3، فالذات، هي صوت الأنا وبصمتها، وتمثيلها مع الجسد، كيف لا؟ إن كانت، بمثابة همزة الوصل بين (الأنا)، وبين الواقع (الهو)؛ إذن: الذات هي الوسيط بين طرفين، واحد منهما معروف، والآخر غريب وغامض، وزئبقي يصعب إمساكه، متقلب بحال هذا الإنسان. وعليه، فالذات عبارة عن مرآة مقعرة ترى نفسها من الداخل إلى الداخل، والانا تعبر عن سلطة مجهولة، غير مرئية اغترابية4؛ ويقصد بها فردانية الفرد، فعندما تتطابق الذات مع الأنا، تنتجان إنسانا خاليا من الأمراض النفسية والعصبية واعيا بذاته وأناه، فهما تخلقان عنده التوازن في الأفعال5، وبكلمة واحدة تعد الذات الإنسانية مصدرا أو منبعا لتحقيق التلاحم الداخلي، بين الذات والأنا، فهي بذلك تستبعد كل أشكال التناقض والتجاوز، والمساواة بينهما، فمن هنا برز ما يسمى "بالإنسان الأحادي البعد"، وهو من يحيلك وباستمرار إلى ذاته وفقط، لكن هل الذات منفصلة عن الأنا؟ أم متحدان؟ فما الإنسان ذو البعد الواحد، "إلا ذاك الغامض"6، فالإنسان منذ البدايات الأولى لوجوده، يبحث عن مرآة تمكنه من إيجاد صورة لهويته المشتتة، فليس ثمة ما هو أقل تحديدا وأكثر تشتتا، مما هي عليه هوية كل واحد فينا، فليس ثمة ما يصعب أن نراه أكثر من وجوهنا، حين لا تكون لدينا مرآة تعكس صورنا، فيقول أحد الفاقدين لهويتهم: "إن حاولت التطلع في ذاتي لا أعرثر إلا على ليل وضباب وهاوية"7.

ومن هنا، عدت (الأنا) ذلك المكان المظلم من الذات، يقول سقراط موضحا ذلك: "إن النفس إذا أرادت أن تتعرف إلى ذاتها، سيكون عليها أن تتطلع إلى النفس؛ وبوجه خاص إلى ذلك المكان من النفس، الذي توجد فيه خاصة النفس"8، نعم؛ "وبوجه خاص عدت الأنا شيئا روحانيا محض، وهي غير قابلة لا للرواية ولا للمس، فهي أسعى شيء وذات شكل هلامي غريب"9، فعندما يصاب الإنسان بحالة فقدان لهويته، يقع في حالة حروب وصراعات لا تنتهي، بين ذاته وأناه، فالإنسان المنكسر هو ذلك الشفاف المختلط، والتشظي الهوية غريب مع ذاته، لا هو هو، أو بالأحرى لا موجودا10.

فعلاقة الذات بالأننا، علاقة ترابطية تراوجية، فلا توجد أنا دون ذات، كما قلنا سابقا، فالأننا موجودة فينا وليست وهمية؛ بل هي حقيقة مخفية هلامية تستحوذ على مساحاتنا الداخلية فالخارجية، شبيهة بالمعادلة الرياضية التي لا حل لها، وأقصد بكلامي هذا؛ أن الأننا غموض لا محدود وسؤال متجدد الطرح، وجوابه أكثر من لبس حقيقتها، فإذا نظرنا للأننا، كحضور، أو كصورة ذاتية محضة، أوجب علينا التطرق إلى مقولة: "أنا أفكر"، فهنا تكون شيئا عاديا وسطحيا بالنسبة بها كملفوظ، أما إذا نظرنا إليها لأجل ذاتها كانت النشوة، "إن النشوة التي تحتجزنا في الحاضر، تفضي بنا إلى المثالية الذاتية الخالصة"11، وعليه، تتأسس مقولة الشبحية عند "جاك ديريدا"، فالشبحية هي بنية لا واقعية ولا محدودة، ووهمية وتافهة؛ بحيث تستند هذه المقولة العصبية على الثبات، أو السكون إلى منطق الانعكاس، "فالشبح منعكس عن الأصل؛ أي منسوخ عن هوية، فالأشباح تمثلات للذوات مثلما تتبع الأصداء الأصوات، أو انعكاس صورة المرء في المرآة، فهو لا هو الشيء هو؛ لأن صورته طبق الأصل، لما هو عليه من ملامح وعلامات"12.

إذا، الذات ذات بعد شبحي، والمقصود بهذا البعد (الأننا)، فالذات مرتبطة بالأننا، كالصوت حين يعود ترددا (صدى) الأصوات، والصور، والتصورات عن هذه الذات13، ومن هنا، نلجأ إلى النظرة التي اعتادت جلّ البحوث العلمية، والفلسفية التقليدية اعتمادها "النفس (الأننا) مستقلة عن العالم، أو بارتباطها بجسدها الخاص فقط، فهي بذلك عريت من خصائصها ومميزاتها، ما أحدث شرخا بين الذات والانا، وهذا ما ترجم بمرض الانفصام"14؛ إذن: لو نظرنا إلى العام الخارجي (الواقع)، لوجدنا أن تلك الوقفة تستدعي منا التركيز على ذلك الأمر الداخلي الخفي والمظلم، من أجل الوصول إلى حقائق الأشياء، ومحاولة لمسها لكي يتسنى للإنسان (الفرد) التعايش بسلام مع ذاته (نفسه) وغيره (الأخر).

فالذات كما نعلم: هي القلب النابض للإنسان، ومصدر الشعور بوجوده ككينونة حية مثبتة، لكن ما يهّمنا الآن هو علاقة الذات بالأننا، وما ينجّر عن هذه العلاقة، فإن حدث أيّ خلل للذات ستثور الأننا وتفصح عن طابعها العدوانية، ما يدفع بهذه الذات الشفافة الانسحاب ببطء من هذا الوجود، فالأننا عبارة عن متزامنة مستمرة للذات، فعند وقوع مرض الانفصام يصبح الإنسان لا موجودا مع: ذاته، أو غيره (العالم الخارجي)، وهذا راجع إلى ذلك التشتت، أو الانشطار في الذات؛ بحيث يصير ما تجده الأننا، ليست هي بالذات15، فكما نرى، أن الذات تتصارع مع الأننا في حالة الإصابة بمرض نفسي، أو عصبي، فينجم عن ذلك خيرا أو شرا في طباع الإنسان "فلا ذات دون أنا"16، فعندما تفقد الذات اتصاليتها بالأننا الداخلية، يحدث خلل في الجهاز النفسي للإنسان، وهنا يصبح الإنسان عبارة عن فراغ ضائع، ومشتت في ذاته، وفي ماهية وجوده.

فمن هنا، أقدمت الميتافيزيقيا الغربية إلى حجب الآخر، تحت مسوغات الوعي والعقل، فالهويات أو الذوات، تختزل في ضمير الحضور (أنا)؛ بحيث لا ضرورة للآخر، الذي هو "كل ما ليس أنا، سواء كان قريبا مني كل القرب، أو بعيدا عني كل البعد؛ أي هو من لا يشبني"17، فمنطلق المركزية، ينجذ الذوات في سجن الوحدانية، ويأسر الهويات، في صرح الأحادية، فإقصاء الآخر هو ما يعكس أمراض الأننا وعقدتها18.

فمن هنا، يرى بعض الفلاسفة والمفكرين "أن إخراج الذات من ذاتها، ومن بعدها الفردي السيكولوجي، يؤثر سلبا على جوهر الإنسان (الأننا)، وما فيه، ويطمس لديه الرؤية الإنسانية الثاقبة، ووعيه بذاته، وبأنه

كإنسان"19؛ إذن، الذات عبارة عن نسيج تصنع نفسها، والانا هي تلك العنكبوت، التي نسجت تلك الشباك، فحين تتفكك الذات من قيد العنكبوت، تذوب وتسقط في الضياع والتهيه20.

وعليه، انبنت أسئلة الإنسان الفاقد لذاته، وشملت جوانب عدة، كجانب البحث عن ماهيته، وهويته الأصلية، المغيبة تحت لبس حتمية الالتهاس في ثوب، ورداء الآخر الغريب عنه، بغية ماذا؟ أكيد بغية معرفة حقيقته ووجوده.

4/ علاقة الذات بالآخر:

نعلم أن الذات محرك أساس للفكر، فهي "منظومة سيكولوجية اجتماعية، تتحدد بطبيعة تطويرية خاصة"21، إلا أنها تبقى قاصرة، وبحاجة لجوانب أخرى، أو عناصر تكملها وتبنيها، من أجل تجاوز ذاتيتها، وكذا تجاوز ذلك الجانب المظلم الغريب، أو الأحادي الفكر، كما أسميته (ذات) و (أنا)، إلى عالم خارجي (آخر)، به أناس مختلفون، بعقليات متجاوزة الاختلاف.

فالإنسان ابن بيئته، ولا يستطيع العيش بمفرده، وعليه تظهر أهمية الآخر بالنسبة للذات، فهو من يمثلها في واقع حي، وهو من يعكس صورها، لكن قبل الانصراف لمفهوم الآخر لا يمكننا نسيان ذكر الهوية، التي تعد هي الأخرى بمثابة ثبوتية، أو بصمة تعريفية جذرية لهذه الذات (الأنا)، فالهوية "أصالة الوجود"22، هي، "ذات الكائن من جهة ما هو هو، أو من جهة ما هو ذاته برغم التغير، أو من جهة ما يتفرد به في الوجود، فيتميز عن غيره"23، ومنه مباشرة، تتضح ماهية الفرد حيث إنها تكسبه نوعا من الحرية والمطلقية في الاختيار والتعايش، وهنا يتجلى مفهوم الآخر باعتباره انفتاحا "ثان على الأشياء، وليس موضوعا معرفتي؛ بل هو ما يذكرني بأن الإنية هي لا شيء، وأنه بحضور الآخر في عالمي، قد صار ما أكونه، جملة يفوق ما أكونه بالنسبة إلى أنا ذاتي، فمن دون الآخر، يسقط الأنا في ظلمة الهوية؛ أي يصير شيئا"24، فالعالم لا يخلو من البشر ومن التمازج (الاختلاط)، فلا بد للإنسان أو الفرد التعايش مع هذه الجماعة أو الآخر بصفة خاصة؛ أي لا بد من تقبل هذا الآخر، فلا توجد ذات دونة؛ لأن الفرد (الذات) لا يستطيع العيش والاستمرار بمفرده "لا توجد هوية دون غيرية"25، فالهوية انتماء"26، سواء أكان هذا الانتماء للذات، أم كان للغير "الآخر"؟

وعليه، تظهر حاجتنا الماسة لذلك الآخر، "فالآخر جزء من أنفسنا من حيث إنه يشترك في إنسانيتنا؛ وبخاصة في الجزء الظهي منها"27، وهو كذلك، عبارة عن نموذج مركب من صفات، وخصائص النفس البشرية، والاجتماعية، والسلوكية، والفكرية، ينسبها فرد ما إلى الآخرين، وكل تعريف يطلق على الأنا من شأنه أن يطلق على الآخر أيضا؛ أي في حالة أن تكون الأنا مرتبطة بعلاقة اختلاف، حتى في الجنس والانتماء مع أنا أخرى، تكون هي الآخر بالنسبة لذاتها28، فالآخر معبأ في دواخلنا، كان موجودا في ماضينا، وهو الآن معنا في حاضرنا هذا، يوازيها، ويتابع خطانا، وتحركاتنا نحو ذلك الذي يسمى "بالمستقبل" إذن؛ فالآخر عبارة عن علقية مستمرة، باستمرار الحياة والوجود، فلولاها لتوقفنا مشتتين، حائرين في وجهاتنا، وفي ذواتنا، فهو بمثابة المحفز للاستمرارية لا للوقوف، ولعل تشبهنا للآخر بالظل للهوية (الذات)، ما هو إلا مثال حاضر عن قوة تأثيره فينا، كأفراد ينقصها ظلال تعكسها على الجدران والأرضيات، وهذه عين الحقيقة المشكلة لواقع العلاقة بين الأنا والآخر بعيدا عن قداسة الذات؛ أي الفردنة "فبالآخر نستطيع التعرف على الذات"29.

فالآخر؛ إذن امتداد لنا عبر العصور، والأزمنة، والأمكنة المختلفة، وشبح يلبسنا في كل توجهاتنا الحياتية، يسير جنبنا في خط سير ثابت، فمتغير حسب الظروف المحيطة، وأقصد بالظروف المحيطة هنا، تلك المشاكل الناجمة عن الاختلافات، أو الخصاص البعيدة عن مبدأ التماثل والمجاورة، بين ذات وآخر، وهذا ما يحدث شرخا واسعا في مفهوم، أو في معنى الهوية، كهوية إنسانية، وهذا ما أطلق عليه مسمى "تشظي أو تعدد الهوية"، الناتج عن سقوط (الأنا) في جدلية رفض (الآخر)، بوصف واقعنا يحتم علينا التعايش مع هذا الآخر، إن صح التعبير، وكذلك تقبله كما هو، بثقافته المختلفة عن ثقافتنا، بعاداته وتقاليده الغريبة عن عاداتنا وتقاليدها، حتى مسألة الدين، التي كانت تدور وتفتح حولها معارك ونقاشات دامية، زالت وصارت عبارة عن حالة مسايرة للواقع الراهن، ولذلك التطور العلمي، في ظل ما أطلق عليه اسم "العولمة".

إذا، ارتباط الأنا بالآخر ليس عبثيا؛ بل حتمية، فكيف لنا أن نواصل دون الآخر؟ فلا حياة دون مشاركة؟ فالحياة عبارة عن جملة من الصراعات بين البشر، بين ذا وذاك، في جدلية مستمرة ومتضادة أحيانا، وهذا ما ترجم لنا ذلك التوازن، بين وبين، كيف لا؟ إن كان واقعنا يطلب منا ذلك؛ إذن ذلك الصراع هو تجسيد لواقع النفس البشرية، وتصوير لها في آن واحد، كيف لا؟ إن كان هذا الفرد، أو الإنسان لا يستطيع العيش بمعزل عن الآخر، فالإنسان ابن الجماعة كما أسلفنا القول سابقا، فهل باستطاعته البقاء في عتمة الأنا متقوقعا، حبيسا ووحيدا رهينة زمان ومكان معينين؟ وبمعنى آخر، هل يمكنه الاندماج وسط بيئة غير بيئته الأصلية؟ سنجيب على هذا السؤال فيما بعد.

فهنا، يمكننا الإشارة فقط إلى معنى الآخر، فنقول: "الآخر هو الكلية المزدوجة للكينونة الذاتية"30، وعليه نعرب ونقول: بأن الإنسان الراض للآخر، شبيه بالوحيد في الصحراء، الذي يعاني في صمت حر الشمس، والظمأ، والوحدة، أو الفراغ، ما يلوحه حتما للجنون الوجودي، ومحاولة البحث عن ذلك الآخر، بالسير والسير دون توقف، رغم التعب من أجل إدراك طريق للنجاة من هوس الأنا؛ إذن: صار الآخر هنا، هروبا من أسئلة الذات (الأنا)، التي لا تنتهي إلا بوجود هذا الآخر، والتعايش جنبا إلى جنب معه؛ ويعني ذلك، أن هذه الأنا هي من تستدعي الآخر، وتطلبه وبشدة، والآخر كذلك يستحب وجود هذه الأنا (الذات) بجانبه، فكلاهما عبارة عن جدلية قائمة على مرتكز التزاوج والتلاحم، بين أنا وآخر في صيغة ترابطية وهكذا.

ومنه جاء ذلك الاختلاف، وعليه، "تختلف آلية العلاقة بين الأنا والآخر، باختلاف الأحداث والظروف، التي يملها الواقع علمها، وتخضع طبيعة هذه العلاقة، لهدف وانتماء كل منهما، وهي غالبا ما تكون علاقة تعارض، أو اختلاف"31، فحينما يضيع الإنسان ويتلاشى كالضباب، يصبح معدوما ومجردا، من ذات، ومن واقع، فارغا من هوية (انتماء)، ضائعا وسط دوامة من الفراغ، والحيرة، والجمود في نفسه، وفي مصيره، فمن هو؟ ولن ينتهي؟.

ونحن هنا، بصدد معالجة مشكلة الانتماء والانتماء، فالإنسان المنتمي لذاته، يحس بالكرامة ويعبر عن ذاته، وعن وجوده بحرية في مجتمع ينتهي إليه؛ بحيث يستطيع العيش مع غيره براحة وطمأنينة وسلام داخلي وخارجي؛ ونقصد بالأمان الداخلي هو ذلك الشعور بوجود (الذات)، وهوية حقيقية، أما بالنسبة للسلام الخارجي؛ فنقصد به التمتع بكافة الحقوق والواجبات داخل وطنه؛ أي الاعتراف به مواطنا بهوية، منتمي لحدود

وطن، أو دولة ما، "المواطنة صلة اجتماعية وسياسية وقانونية تحمل معنى الحق القانوني للجنسية، تكون قائمة بين شخص ودولة"32، وكذلك "لا يكون مواطنا إلا من تعترف الدولة بأنه أحد رعاياها"33، فالآخر، هو الملمتس الوحيد للنجاة من وحدة الذات (الأنا)، كيف لا؟ إن كان وجودنا لحد ذاته هوسا، وفراغا دونه، هذا من جانب، لكن من جانب آخر، كيف يبحث الإنسان المحطم عن الآخر، إن كان هذا الآخر جلاده؟؛ ونقصد بذلك العلاقة بين الأنا الفلسطينية المضطهدة، والآخر الإسرائيلي القاتل أو الجلاد إن صح التعبير، كيف لنا أن نحاوره، أو نخاطبه؟ أو أن نطلبه؟ إن كان سببا في ضياع ذواتنا وهوياتنا؟ إذن؛ "تختلف صورة الآخر في السلم عنها في الحرب؛ أي أن الآخر يتجدد صورته طبقا للعلاقة الإيجابية، أو السلبية بالأنا"34.

والآخر "جزء من أنفسنا، من حيث إنه يشترك في إنسانيتنا"35، لكن واقع هذه الذات المغيبة لا يدرك إلا بالخطر الناجم عن الاحتكاك به، حيث "يدرك الآخر بطريقة كونية شبه مطلقة على أنه خطر كامن ومهدد"36، فالآخر عبارة عن "مركب من صفات وخصائص النفس البشرية والاجتماعية والسلوكية والفكرية ينسبها فرد ما إلى الآخرين"37، وعليه، تختلف آلية العلاقة بين الأنا والآخر "باختلاف الأحداث والظروف، التي يملها الواقع علمها، وتخضع طبيعة هذه العلاقة لهدف وانتماء كل منهما، وهي غالبا ما تكون علاقة تعارض، أو اختلاف والأنا لا تشعر بوجودها إلا في وجود الآخر"38؛ لأن هنالك من يطلق عليه صفة التعسفية، لكن حتى وإن كان هذا الآخر متعسفا إلا أننا نبقى في حاجة ماسة إليه، وهنا ترتسم ملامح الجدلية بين الذات والآخر وسط عالم شاسع وكبير.

فلا يستطيع أي إنسان العيش لوحده مع ذاته وفقط، حتى وإن رفض الآخر، وحاول أن يتجاوز كل حدود الرفض، فالآخر موجود معه في هيئة مضمرة، فلا ذات دون آخر، وهنا تكمن الحاجة الملحة للآخر، "وقد اتسمت مسألة الأخرية، وأسئلة الهوية والاختلاف في الفكر العربي الحديث، بطابع التوتر، الذي يتجلى أحيانا في التمزق، بين ماضي الذات وحاضر الآخر"39، فالغيرية (الأخرية) ظلال للأنا ومكملة لها؛ أي هي رؤيا توضيحية تعمل على شرح، وملء فراغات الأنا؛ ويعني ذلك أنها ترسيخ لحضور (الذات) أي؛ الأنا داخل حيز، أو مكان ما.

5/ أسئلة الذات في رواية (أولاد الغيتو اسمي آدم)40:

ليس غريبا أن يقع الإنسان في فخ الأسئلة، التي تعد بمثابة جنون فكري، فهي من الأساس مأزق وجودي (هووي) "إن إنسان هذا العصر هو إنسان الأسئلة بامتياز"41، يعايش الواقع بظلمه؛ إذن إنسان هذا العصر؛ إنسان متورط ذاتيا، كيف ذلك؟ فالإنسان منذ وجوده يبني حياته على الأسئلة اللامتناهية، ومن بينها "سؤال الهوية الذي يطرح نفسه بصيغ مختلفة وسياقات متعددة باعتباره إشكالية ذهنية، تطرح نفسها في أوقات التحديات المصرية، والأزمات الثقافية؛ حيث تتحول أحيانا إلى أزمة، نتيجة الأوهام المبالغ فيها، والخوف عليها من الآخر المختلف، وكذلك من الانتماءات والولاءات والتصورات الإيديولوجية، مؤكدين أن إشكالية الهوية ترتبط بإشكالية الحرية، وأن أزمة الهوية ترتبط قبل كل شيء بأزمة الديمقراطية"42.

والمتمعن لرواية *أولاد الغيتو اسمي آدم* يدرك صورة الإنسان الفاقد لهويته ومعيشته وسط زخم عالم مؤلم، فالرواية تروي، أو تصور واقع الإنسان المتشظي الهوية من خلال مثال حي عن هذا التمثيل؛ شخصية "آدم دنون"، يقول آدم: "أجلس الآن في بيتي الصغير في نيويورك أرى من نافذتي كيف يغطي صمت

الثلج أصوات المدينة وأتساءل ماذا أفعل الآن، هل أبحث عن الحقيقة؟ أم أملاً فراغ حياتي بأسئلة لا أملك الإجابة عليها"43، وعليه عد "سؤال الجذرية هو نفسه سؤال الفكر في تحديه لكل سقوط، وفي مقاومته لكل نزوع"44، فحين تغيب الهوية تروح الذات، ويصبح الإنسان في حالة من فوضى الأسئلة، ما يدفعه لاستحضار الذاكرة من أجل، النبش عن ماهيته الأصلية، أو أن يستسلم للبس الهويات، ويتخلى عن ذاته، وعن حقيقته ككل، "فالعودة إلى الذات، هي كذلك خروج منها، وذلك أن الإنسان يكون دوماً قد بدأ خارج نفسه، ولذلك علينا الكف عن أي طمع أنانوي ينتهي دوماً بالسقوط في ضرب من ليل الهوية، الذي لا يخرج منه في الواقع إلى الكينونة"45.

فالهوية هاهنا، عبارة عن أثر للذات، وبروز لها، تمثلها وتفصل في ماهيتها، في هذا العالم، وتمتاز عادة بالاختلاف، بعيداً عن النمطية المعتادة، فهي بذلك خروج عن المألوف؛ إذن هي عنوان الإنسان وحضوره، فهو هو ما دام مفتوحاً على غيره، وعلى عمقه بصفة خاصة، وعليه لجأ بطل رواية (أولاد الغيتو) إلى عملية التخلي "فتحول الذات هو ترك للهوية القديمة"46؛ أي هو التحول من شخص إلى آخر، ومن هوية إلى هوية أخرى، ونسبي هذه العملية بالتناوب الهوي، "ويقصد بمصطلح التناوب الهوي، ذلك التحول إلى شخص آخر، جراء تغيير في الدين، أو المعتقد، أو الوطن، ما ينتج عنه تغيير في الهوية"47، يقول آدم: "نجحت وكنت إسرائيلياً كالإسرائيليين، لم أخف هويتي الفلسطينية، لكنني خبأتها في الغيتو، الذي ولدت فيه، أنا ابن الغيتو"48. وعليه، أدت عملية التناوب الهوي، إلى إحداث شروخ شاسعة، في ذات الإنسان الفاقد لذاته الأصلية، لأن هذه العملية الانتقالية من هوية، إلى هوية أخرى جديدة، ليس بالأمر الهين؛ بل هو أمر صعب للغاية، فهو نتاج ووليد الألم، المصحوب بالفرار من البؤس والظلم، فصاحب هذا الخيار، إما ينقاد للنجاح والاستمرار، أو الاستمرارية إن صح التعبير، وإما أن يقع في فخ، أو لبس اللاتشيء؛ أي يقول: "أنا لا شيء"49، ما يقوده حتماً للجنون والفراغ، من الأنا والهوية معاً، والسقوط في طريق الزوال (الانتحار)، كحل نهائي لرحلة البحث عن الحقيقة، يقول آدم: "كان علي أن لا أكون"50.

ومنه ثمة، يختلط الأمر، فيصير الإنسان لا منتمياً لذاته، أو هويته من جديد، فيحاول جاهداً استدراك الأمر، وتغطية ذلك الشرخ الهوي العميق، بواسطة استحضار الذاكرة "فما يخيف في كل هوية هو تحولها من حيث لا ندري إلى ذاكرة ضخمة تعمل كدائرة لا متناهية لها، في كل مكان مركز وحيد يحفظ في ذاته كل الدوائر الأخرى"51، وعليه، "يموت سؤال الفكر على مداخن الذاكرة، لينتصر هدير الصوت الحي، الكلام الحامل للموتى في ضمير الأحياء"52، فالإنسان يعبر عن انتمائه بثبوتيته، لكن مع فقدان الهوية، يصبح الإنسان لا موجوداً، ويضيع بضياح الذات، ويختط بالموتى، وما النسيان وترك الهوية الأصلية، إلا جنون حاضر وغائب، بين القديم والجديد، "فليس التمثيل غير وسيلة الذاكرة المتعبة، الوسيلة السيئة لنسيان نفسها من خلال نمط ميت من تذكّر الماضي"53.

فالحقيقة، أو الوصول إلى الحقيقة، مشقة في حد ذاتها "فهي كل ما يثبتته الإنسان وينفيه في ذات الوقت"54، وعليه، عدت الحقيقة نقطة نهاية للأسئلة، أو حلاً للمشاكل، أو فصلاً في الأمور، فإذا غابت الحقيقة كثرت الوهم، وزادت الأسئلة في التراكم، وهذا ما يوقع الإنسان حتماً في معضلة تراحم الأسئلة

اللامتناهية، ويحدث إنهاكا للفرد الفاقدا لذاته وهويته معا، كما حدث مع "آدم دنون" بطل رواية (أولاد الغيتو) حين طرح عدة أسئلة عن حقيقته، وهويته الأصلية دون أي إجابة، فهو ضائع الاسم، والأهل، وكل شيء، يقول: "أشعر أن عليّ الآن أن أكتب الحقيقة عارية وصادمة ومتناقضة ومتوحشة كما عشتها"55، فالإنسان الفاقدا لكل هذه الثبوتيات يصير بين لحظة وأخرى لا منتميا: لذاته، أو غيره، وهذا ما يجعله يعاني في صمت جنون الأنا، فمن أنا؟ ومن أكون؟ هذا السؤال الذي لا يبرحه إلى أن ينهيه مريضا نفسيا، ومضطربا عصبيا، فالأمراض النفسية تقود حتما (للانتحار)، وهذا ما أقدم على فعله في الأخير بطل الرواية "آدم دنون"، أو ناجي، أو ابن شجرة الزيتون، أو لا أعلم من هو؟ ومن يكون؟

بصيغة أخرى، كيف لا يرفض الإنسان ذاته وواقعه؟ إن كانت هويته الأصلية ممزقة، كيف له أن يصمت ويتعايش، إن كان يعاني ويصارع في صمت هاجس الفردانية، والوحدة القاتلة؟ فكيف لا يفر من ذاته ومن ماضيه ويهجر كل ما كأنه هو؟ وكيف يلزم النسيان ملجأ ويفر ويهرب؟ إلى أين؟ وكيف سيعيش؟ كل هذه الأسئلة لا يخلو منها تفكير أي إنسان مشتت الهوية، وهذا ما يدفع به أقصد الواقع (الحقيقة) الوقوع في التعددية الهوية، فالأسئلة هنا عبارة عن معركة لا يعرف من المنتصر فيها، أيكون الحظ حليف الإنسان؟ أم حليفها هي؟ وهكذا فحوارية الذات مع ذاتها جنون وموت بطيء، سرعان ما يصبح عبارة عن حتمية مطلقة، تنتهي بالزوال كحل فعال لنسيان الألم.

فنحن نعيش في عالم واحد، كتلة واحدة، والذكريات كذلك لها ارتباطها الوثيق بالأشخاص، وبالزمان وبالمكان؛ أي بالتاريخ الذي يمثلنا كولد، فمراحل عمرية إلى ما نحن عليه الآن، وما السرد إلا ذلك الشيء الذي يرجعنا للخلف باستفزازنا، تفتيشا عنا نحن، أو عن ذواتنا عبر الأزمان، وعبر الأماكن التي مررنا عليها وعشنا فيها في وقت ما فات وانصرف، وهنا نستطيع القول: إن الذات تسترجع ذاتها عبر رحلة ذهنية شاقة تدعى بالاسترجاع أو الاستنكار، وعليه، "فالسرد يكون الهوية، ويعيد صياغتها بالطريقة ذاتها، التي يقوم فيها التحريك بتشكيل التاريخ وإعادة صياغته"56، وهذا ما يجعل من الإنسان الفاقدا لذاته، أو المتشظي الذات فارا من مكان إلى مكان آخر بعيد عنه، من أجل طمس ماضيه الذي لا يحويه كذات حاضرة حقيقية، فكيف نعيش الحاضر إن لم تكن لنا ذاتنا الحقيقية ثابتة معنا؟ فالذكريات هي ماضينا وبها انبنت حياتنا، وبها نحن هنا حاضرون داخل واقعنا، فكيف نوقفها إن كانت هي سببا في ألما وفي ضياعنا؟ يقول آدم دنون: "انفجرت روحي وسالت ذاكرتي"57؛ ويقصد بذلك أنه انفجر؛ أي لم ينفجر بمعنى الانفجار الحقيقي؛ بل انفجرت وزالت شخصيته الملتبس بها، فبالرغم من ابتعاده عن وطنه فلسطين، والتباسه بشخصية أخرى محاولة منه محو تاريخه، الذي لا يحويه كذات معترف بها، باسم ولغة وأهل (أب وأم) ووطن، هنا وجد نفسه ضائعا من جديد دون: ذات وهوية، زال كل شيء وعاد للفوضى والضياح في ماهيته المغيبة، فمن هو؟

أسئلة لا حدود لها، هي الجنون بعينه، لذلك نجد أن: سرد قصة ما يختلف عن الذات، أو عن تقديم وصف دقيق لها، لذلك وجب علينا قبل أن نتكلم أن نراعي نوع السرد المطلوب الذي نقدمه لأنفسنا، فيمكن أن يكون لهذه الذات حتى وإن كنا نحن ألما ما تخفيه في داخلها، له معنى المعاناة58، ومن هنا، يعود "آدم" بطل روايتنا، للبحث من جديد عن اسمه الغائب، وعن ذاته، فيقول: "أنا آدم الغيتو، وأبي مات في المستشفى

قبل ولادتي، وأمي حملت بي بطريقة عجائبية، حين نامت إلى جانب الرجل المحتضر في سريرته بمستشفى اللد، وإيليا بطشون صرخ باسعي، عندما رأني مقمطا بين يدي أمي قائلا: هذا (آدم اللد)"59 ، ويقول كذلك: "أنا آدم سليل عائلة دنون... فأنا ابن الأرض"60.

وهذا ما يحيلنا مباشرة لموضوع علاقة الاسم بصاحبه، كيف لا؟، وإن تعددت الأسماء لشخص واحد، ففي هذه الرواية كثرت الأسماء ودلالاتها التي جعلت منها رموزا وشفرات خفية تستدعي حلا لأبعادها ومكاشفتها لتتضح الحقيقة؛ بحيث حملت في ذواتها معانٍ ودلالات مخبأة خلف السطور، أو خلف سطور الذاكرة، فأدم دنون بطل الرواية ضحية اختلاط الأسماء، يقول: "أشعر بأنني لا أستطيع متابعة الكتابة فبعد لقائي بمأمون تغيرت دلالات الأشياء وصرت كالأعمى"61، ومأمون هو من ربي "آدم"، وهو رجل أعشى ووحده من يعرف سر "آدم" فهو من وجده، رفقة "منال"، والتي ادعت هي الأخرى أنها أم "آدم" الحقيقية، فبظهوره صدفة انقلبت حياة "آدم"، و زال قناعه الهوي الذي يرتديه وعادت إليه ملامحه السائلة عن ذاته، فهنا، يسأل "آدم" عن اسمه، فيقول له مأمون: "سميتك ناجي، فيرد عليه آدم سائلا، و باحثا عن اسمه و ذاته الأولى؛ أي عن اسمه الحقيقي، فيجيبه مرة أخرى: "اسمك ناجي يا ناجي يا حبيبي"62.

وهنا نفهم أن مأمون أراد إلصاق اسم أو صفة النجاة بذلك الرضيع، الذي وجده تحت شجرة الزيتون، فوق صدر أمه الميتة يبكي جوعه وعطشه، فالنجاة حسب مفهوم مأمون هي: الحياة؛ أو بالأحرى هي كيفية ممارسة الحياة من جديد؛ أي البقاء، فلذلك أطلق اسم "ناجي" على "آدم"، ومن هنا يكمن السر في معنى اسم "ناجي" الذي يعد لحد ذاته لغزا، أو تساؤلا يستدعي الإجابة.

ومن جديد، تختلط الأحداث والأسماء، وإن صح التعبير الذوات على بطل روايتنا، فيقع في حيرة فقدان الذات التي انصهرت تحت عنوان: "ابن شجرة الزيتون"، أو "الحقيقة الصادمة"، فيقول آدم: "أنا هو أنا ولا أريد أن أتحوّل إلى رمز"63، وعليه نصطدم برمزية الاسم؛ ويعني ذلك رمزية اللغة التي صارت عبارة عن شظايا للألفاظ والمعاني فصمت ثم كلام ثم صمت، يقول "آدم": "علي وأنا أكتب عن اللد، أن أتخذ موقف المتفرج، و أتوقف عن الرثاء، خلص الماضي مات، ويجب أن أتعامل مع الوضع ببرودة"64، وهذا ما أحالنا مباشرة لموضوع ومعنى اللغة؛ بحيث عدت هي الأخرى رمزا من رموز الدولة؛ حيث إن لكل مجتمع لغته ومقوماته وثبوتياته، التي يعبر بها وتعبر عنه.

فمن هنا، كان لا بد لكل إنسان امتلاك لغة يعبر بها وتعبر عنه، فالكاتب يكتب بواسطة لغة، ينقل من خلالها واقعه ووجدانه وأفكاره إلى العالم، لكن "آدم" وبالرغم من امتلاكه لملكة الكتابة، لا يملك لغة يعبر بها، كيف ذلك يا ترى؟، يمتلك لغة ولا يتكلم؛ أو بالأحرى لا يستطيع الكتابة؛ لأن اللغة صارت مفقودة بسبب فقدانها لذاته ولهويته الحقيقية، فكما نعلم أن: مشكلة الإنسان اللامنتهي هي إنكار التعبير الذاتي، وهنا "آدم" ليس منتميا لا مع ذاته، ولا مع غيره؛ والمقصود من ذلك، أنه شخص غير طبيعي (مختلف)، لا يستطيع قبول الحياة كما هي؛ بحيث لا يستطيع اعتبار وجوده أو وجود أي فرد آخر ضروريا، فهو يرى أعمق وأكثر مما يجب، وهكذا فالمشكلة صارت مشكلة تعبير65، أي أن؛ المشاكل لا تكمن في علاقة الكاتب باللغة؛ لأن الذات وهي تكتب لا تتحوّل إلى موضوع؛ ويعني ذلك موضوع ذات أخرى؛ بل تغدو هي الأخرى غريبة عما تكتبه، فالكتابة إذن:

ممارسة للغربة، لغربة تجعلها موضوع بحث معرفي، فالكتابة تجربة اغتراب، وانتشار يزيح الهوية، فهي ليست تجربة انتصار للشفافية وامتلاكها؛ بل هي انتصار للعممة، فاللغة لا تنتهي لذاتها، وليست شيئاً في ذاته 66. وهذا ما جعلنا نذهب إلى ما ذهب إليه "آدم دنون" حين قال: "خيارى الوحيد هو خيار العودة إلى وضاح اليمن، ليس من أجل متابعة حكايته؛ بل كي أأفن قصة العثور علي تحت شجرة الزيتون في صندوق الحب" 67، وهنا يتضح لنا أن "آدم" يعاني من تشظي اللغة، الناتج عن فقدان الحقيقة، حقيقة وجوده؛ يعني حقيقته هو كذات، جراء فعل التغييب فهو حاضر غائب، سواء أكان مع ذاته هو، أم كان مع الآخر، فحين كتابته لقصة يعرفها (قصة وضاح اليمن) وما حدث لهذا الأخير في صندوق الحب الذي كان سبباً في نهايته، لكنه عجز عن مواصلة الكتابة، بفعل أن الكتابة استرسال في سرد الذات، وهذا ما وقع مع بطل روايتنا، فهو يخفي ويختفي وراء الأقنعة، وعليه: فالإنسان يتشكل بصعوبة، وذلك لوصفه ذاتاً انعكاسية داخل عالم اجتماعي معطى، فالذات المقصودة متشكلة وبوضوح داخل مجموعة من المواضعات، التي تثير سؤال إمكانية إقامة حياة طيبة في حياة سيئة 68.

وهذا ما جعلنا ننتقل دون تردد لطرح آخر، ألا وهو الاستعارة؛ ونحن لا نقصد الاستعارة بمفهومها التعريفي؛ بل نتجاوزها لمعاني توليدية أخرى محاولة منا إخفاء حكايتنا نحن، وذلك بالاستعانة بحكايات أخرى، "فآدم" كاتب استعان بحكايات قديمة عن شعراء وكتاب عصور فائتة من أجل التغطية على حكايته، أو محاولة محوها، فهي أرق وشبح يخيفه، وهذا ما جعله يقول: "الحكايات التي نسيتمها تستيقظ الآن، حكايات تبدو كأشباح هائمة في ليل الذاكرة تصير كلمات، والكلمات تصير ذاكرة (..) أريد أن أنام، وأريد لهذه الكلمات أن تنام هي أيضاً، أنا مرهق وهي مرهقة" 69، فالإنسان المشبع بالمعاناة والألم، تفرض عليه حكايته سردها، بل تكتب نفسها بنفسها، كيف لا؟ وإن كان هذا الإنسان (الفرد) يعاني ويحترق شوقاً لإدراك ذاته الحقيقية، التي صارت شبحاً يراوده، ويلاحقه أينما حل وذهب، لذلك: فالذات عبارة عن حمولات من المعاناة 70.

ولهذا نجد: الإنسان الباحث عن ذاته دائم الخوف؛ لأنه صار خاويًا فارغاً من الداخل، وهذا ما رأيناه مع بطل رواية "أولاد الغيتو" حين قاده الفراغ إلى طرح أسئلة لمعرفة حقيقته الصادمة، أو بالأحرى لجنون الأسئلة التي لا تنتهي، حيث صارت إلحاحاً وأرقاً يستدعي الانفلات أو خلق فرص للانفلات من الواقع؛ ونحن نقصد أنها فرضت سلطويتها على بطلنا، وهو ما دفعه للتشظي اللغوي فبدل أن يكمل مشروعه اللغوي أو الكتابة عجز؛ لأن حكايته ظهرت وشوشات لغة مخفية، أو محبوسة في مكان ما يدعى بالاشعور، وهذا ما جعل "آدم الغيتو" يقول: "سوف أكتب حكاية الغيتو، ليس لأن الحنين إلى بلادي يدفعني إلى ذلك، فأنا غريب هنا في نيويورك، مثلما كنت غريباً هناك في اللد وحيفا ويافا، أكتب غربي لا حيني" 71.

ونعود من جديد لمشاهد الموت، التي أثقلت الذاكرة وهزّت حاضر *مأمون و*آدم* مرسله إياهم إلى الماضي المؤلم، فيقول *آدم* معبراً عن ذلك الرجوع الزماني الذهني: "لا أحب هذه العودة إلى الماضي، لأنها تبدولي شكلاً من أشكال الهروب من مواجهة الحاضر" 72، وهنا نفهم أن ماضي *آدم* هو الألم بعينه، لكن ما علاقة الماضي بالحاضر؟ وما علاقة الهروب من الزمن بألم آدم؟

إذن: الهروب من الحاضر هو عملية طمس للحقيقة المرة حقيقة من أكون، حقيقة الكذبة الوجودية، لذلك يقول *آدم*: "ماذا قيل في الليل المعتم، الذي لا يصحّ فيه سوى تشبيه الليل بالليل، مثلما يكتب العرب حين يقولون: *ليل أليل؟*"⁷³، فالمفهوم من قول آدم أن الألم هو الألم الذي أضمره وحلّ مكانه صورة عربية معروفة منذ القديم وهي: الليل بأبعاده ومعانيه ورموزه، فالليل رمز السواد والعتمة والسكون والصمت، فكلّ هذه دلالات للحالة التي عاشها *آدم* دنون* جرّاء معرفته لحقيقته.

فحقيقة الواقع مرّة بمرارة ذلك الماضي وما يحمله من معاني الألم والظلم والجوع، فلغة الصمت كما قلنا سابقا لغة كلّ من لا حيلة له، أو بالأحرى هي لغة كلّ إنسان مضطهد "بلاغة صمت الضحايا في ساحة الجامع الكبير في اللد أخذتني إلى بلاغة الرقص في ساحة قرية فسوّطة الجليلية، رأيتُ غبار الصمت ينتشر ويغطّي الجميع"⁷⁴، يوحى الاقتباس إلى أن *آدم* دنون* شبّه صمت الناس أو المهجّرين من اللد إلى الغيتو بالراقصين، لكن هنا مشهد مغاير تماما فغبار الراقصين فرحا ليس كغبار الصمت؛ والمقصود بذلك بلاغة الصمت؛ أي ماذا بعد الصمت؟ أو ما سبب هذا الصمت؟

وفي سياق الكلام عن حالة الموت والصمت والألم والعطش والخوف، يقول *مأمون الأعمى*: "الموت كان لا يحصى، كيفما نظرت لن تجد سواه، أنا لا أتحدّث عن الجثث التي كان علينا أن نلتقطها من الشوارع والبيوت، ثمّ نقوم بدفنها، وينتهي بنا المطاف إلى إحراقها... لا أنا أتحدّث عن شبح الخوف من الموت والأمراض الذي استوطن الغيتو"⁷⁵، فهنا يُصوّر *مأمون الأعمى* الحالة المزرية التي عاشها سكّان الغيتو؛ من بؤس وجوع وعطش، فالخوف من انتشار الأمراض جرّاء تعفن الجثث وما نتج عنه من انتشار للبعوض الأزرق؛ إذن: فصدمة الحقيقة واسترجاع الذكريات الماضية المؤلمة، تمحيان ما بناه الإنسان في لحظة تذكّر أو صدفة واحدة، فالحقيقة تبقى نفسها مهما رحل الإنسان أو نسي.

وعليه، تتزاح ملامح الحياة عند الإنسان المغترب الذات والوطن، أو المغترب داخل وطنه، كيف لا؟ وحياته مبنية على ركام من الفراغ، وهذا في حد ذاته مشكل، أو بتعبير آخر كارثة، فالذات صفة سامية تثبت الفرد حاضرا، لكننا في "رواية أولاد الغيتو اسمي آدم" لمسنا ذلك الجانب الداخلي الحساس من الذات الإنسانية، أجل لمسنا واقعا ككل، فغياب الذات هو الأسئلة، هو الجنون، هو الانتحار لا غير.

الخاتمة:

خلص البحث في موضوع؛ أسئلة الذات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري إلى مجموعة من النتائج نوجزها في الآتي:

- إن الكشف عن دواخل الإنسان ومحاولة معرفة ما يحدث داخله ناتج عن مزيج بين الذات والأنا.
- إن محاولة الوصول للعلاقة الرابطة بين الأنا والآخر؛ هو تحقيق ثبوتية أن الإنسان لا يعيش إلا مع الجماعة، ولا يمكنه العيش بمفرده، بالإضافة إلى التمييز بين هذه العلاقة (أنا وآخر)، أو كيف ستكون إن كان هذا الآخر ممثلا في المحتل أو العدو؟

- رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري نموذج حي للإنسان متشظي الذات.
- مثلت ذات آدم بطل رواية أولاد الغيتو الحقيقة الغائبة التي يبحث عنها كل فلسطيني فاقد لما هوّيته.
- استطاع إلياس خوري من خلال روايته أولاد الغيتو مكاشفة واقع الشعب الفلسطيني المطموس الذات والهويّة.

- عالجتنا أسئلة الذات والهوية، التي تراود أي إنسان بالأخص الإنسان المتشظي الذات والهويّة، بفعل مرارة الواقع وحتميته، لذا وقع اختيارنا على رواية (أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري) للدراسة لما تحمله من أسئلة عن الذات والهوية معا.

هوامش وإحالات المقال

- 1 عبد الكريم بكار: اكتشاف الذات (دليل التميز الشخصي)، دار وجوه للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط4، 2010م. ص:14.
- 2 المرجع نفسه، ص: 429.
- 3 صلاح فليفل الجابري: فلسفة العقل- التكامل العلمي الميتافيزيقي-، دار الفارابي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2012م. ص:144.
- 4 ينظر: إيريك فروم: المجتمع السوي، ترجمة: سي- جورج بوري، دب، ط1، 2009م. ص: 266.
- 5 المرجع نفسه، ص: 16-17. (بتصرف).
- 6 هيربرت ماركوز: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1988م. ص:12.
- 7 جان فرانسوا ماركيه: مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، ترجمة: كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1. 2005م. ص:15.
- 8 المرجع نفسه، ص: 16-17. (بتصرف).
- 9 المرجع نفسه، ص:42. (بتصرف).
- 10 ينظر: صلاح فليفل الجابري: فلسفة العقل-التكامل العلمي الميتافيزيقي-، ص:141.
- 11 ينظر: جان فرانسوا ماركيه، مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، ص: 257.
- 12 محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحدائنة (رهانات الذات الإنسانية من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق)، الرافدين للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2017م. ص: 17.
- 13 المرجع نفسه، ص: 20. (بتصرف).
- 14 صلاح فليفل الجابري: فلسفة العقل - التكامل العلمي الميتافيزيقي -، ص: 34.
- 15 ينظر: جان فرانسوا ماركيه: مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، ص: 259.
- 16 سالم يفوت: المناجي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1999م. ص: 21.
- 17 محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحدائنة (رهانات الذات الإنسانية من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق)، ص: 38.
- 18 المرجع نفسه، ص: 41. (بتصرف).
- 19 سالم يفوت: المناجي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، ص: 13.
- 20 المرجع نفسه، ص: 75. (بتصرف).
- 21 عمرو عبد العلي علام: الأنا والآخر (الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، دار العلوم للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، ط1، 2005م. ص: 10.
- 22 حسن حنفي: الهوية (مفاهيم ثقافية)، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، القاهرة، ط1، 2012م. ص: 55.
- 23 جان فرانسوا ماركيه: مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، ص: 434.
- 24 فتحي المسكيني: الكوجيتو المجروح (أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة)، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2013م. ص: 114.
- 25 كلود دوبار: أزمة الهويات -تفسير تحول-، ترجمة: رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م. ص: 19.
- 26 المرجع نفسه، ص: 18.
- 27 عمرو عبد العلي علام: الأنا والآخر (الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، ص: 13.
- 28 المرجع نفسه، ص: 17. (بتصرف).
- 29 علي حرب: خطاب الهوية (سيرة فكرية)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط2، 2014م. ص: 83.

- ³⁰ علي حرب: خطاب الهوية (سيرة فكرية)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط2، 2014م. ص:83.
- ³¹ عمرو عبد العلي علام: الأنا والآخر، ص:17.
- ³² سيدي محمد ولد ديب، الدولة وإشكالية المواطنة (قراءة في مفهوم المواطنة العربية)، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2011م. ص:59.
- ³³ المرجع نفسه، ص:54.
- ³⁴ عمرو عبد العلي علام: الأنا والآخر، ص:17.
- ³⁵ المرجع نفسه، ص:13.
- ³⁶ المرجع نفسه، ص:13.
- ³⁷ المرجع نفسه، ص:17.
- ³⁸ المرجع نفسه، ص:17.
- ³⁹ نادر كاظم: تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط)، دار الفارابي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2004م. ص:15.
- ⁴⁰ رواية أولاد الغيتو اسعي آدم، رواية من الأدب الفلسطيني، ذات حمولات ملء بحكايات وقصص الفلسطينيين المنسية، تروي واقع الفرد الفلسطيني المغيب الذات والهوية والوطن في ظل الاحتلال الصهيوني الظالم، فآدم دنون بطل هذه الرواية ما هو إلا نموذج واحد يمثل كثير الفلسطينيين، الذي لاحته الظروف للفرار والالتباس في الآخر، ثم الانتحار كحل جذري للخلاص من تشظي الذات و تشظي الهوية والضياع.
- ⁴¹ مهنانة إسماعيل، العرب ومسألة الاختلاف (مآزق الهوية والأصل والنسيان)، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2014م. ص:11.
- ⁴² إبراهيم الحيدري: الشخصية العراقية (البحث عن الهوية)، ج1، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2013م. ص:14.
- ⁴³ إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو-اسعي آدم-، دار الآداب للنشر والتوزيع، مكتبة الفكر الجديد، بيروت، لبنان، ط2016، م1. ص:246.
- ⁴⁴ مهنانة إسماعيل، العرب ومسألة الاختلاف (مآزق الهوية والأصل والنسيان)، ص:19.
- ⁴⁵ فتحي المسكيني، الكوجيتو المجروح (أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة)، ص:109.
- ⁴⁶ كلود دوبار: أزمة الهويات -تفسير تحول-، ص:301.
- ⁴⁷ المرجع نفسه، ص:301.
- ⁴⁸ إلياس خوري، رواية أولاد الغيتو - اسعي آدم -، ص:117.
- ⁴⁹ كلود دوبار: أزمة الهويات - تفسير تحول -، ص:301.
- ⁵⁰ كلود دوبار: أزمة الهويات - تفسير تحول -، ص:301.
- ⁵¹ فتحي المسكيني، الكوجيتو المجروح (أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة)، ص:136.
- ⁵² مهنانة إسماعيل، العرب ومسألة الاختلاف (مآزق الهوية والأصل والنسيان)، ص:28.
- ⁵³ فتحي المسكيني، الكوجيتو المجروح (أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة)، ص:128.
- ⁵⁴ عبد العزيز بومسهولي وآخرون: أفول الحقيقة (الإنسان ينقض ذاته)، أفريقيا الشرق، المغرب، الدر البيضاء، دط، 2004م. ص:09.
- ⁵⁵ إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو - اسعي آدم -، ص:98.
- ⁵⁶ نادر كاظم: الهوية والسرد، دار الفراشة للنشر و التوزيع، الكويت، ط2، 2016م، ص:131.
- ⁵⁷ إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو- اسعي آدم-، ص:162.
- ⁵⁸ ينظر: جوديث بتلر: الذات تصف نفسها، ترجمة: فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2014، م1. ص:51.
- ⁵⁹ إلياس خوري: أولاد الغيتو- اسعي آدم-، ص:138.
- ⁶⁰ المصدر نفسه، ص:138-168.
- ⁶¹ المصدر نفسه، ص:137.
- ⁶² المصدر نفسه، ص:138.
- ⁶³ المصدر نفسه، ص:138.
- ⁶⁴ المصدر نفسه، ص:414.
- ⁶⁵ ينظر: كولن ويلسون: اللامنتهي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط5، 2004م. ص:94.
- ⁶⁶ ينظر: سالم يفوت: المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر: دار الطليعة للكتابة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999م. ص:61-62.

- ⁶⁷ إلياس خوري: أولاد الغيتو- آسي آدم-، ص:138.
⁶⁸ ينظر: جوديث بتلر: الذات تصف نفسها، ص:225.
⁶⁹ إلياس خوري: أولاد الغيتو -آسي آدم-، ص:417.
⁷⁰ ينظر: جوديث بتلر: الذات تصف نفسها، ص:51.
⁷¹ إلياس خوري، أولاد الغيتو -آسي آدم-، ص:19.
⁷² المصدر نفسه، ص:287.
⁷³ المصدر نفسه، ص:251.
⁷⁴ المصدر نفسه، ص:234.
⁷⁵ المصدر نفسه، ص:237.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم الحيدري. الشخصية العراقية(البحث عن الهوية)، ج1، التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 2013م.
2. إسماعيل مهنانة، العرب ومسألة الاختلاف(مآزق الهوية والأصل والنسيان)، منشورات ضفاف، بيروت-لبنان، ط1، 2014م.
3. إلياس خوري، رواية أولاد الغيتو-آسي آدم- دار الآداب للنشر والتوزيع، مكتبة الفكر الجديد، بيروت-لبنان، ط1، 2016م.
4. إيريك فروم، المجتمع السوي، المترجم: سي-جورج بوري، دب، ط1، 2009م.
5. جان فرانسوا ماركيه، مرايا الهوية(الأدب المسكون بالفلسفة)، ترجمة: كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1، 2005م.
6. جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة: فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2014م.
7. حسن حنفي، الهوية(مفاهيم ثقافية)، المجلس الأعلى للثقافة، مصر-القاهرة، ط1، 2012م.
8. سالم يفوت، المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 1999م.
9. سيدي محمد ولد ديب، الدولة وإشكالية المواطنة(قراءة في مفهوم المواطنة العربية)، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2011م.
10. صلاح صالح، سرد الآخر(الأنا والآخر عبر اللغة السردية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2003م.
11. صلاح فليفل الجابري، فلسفة العقل-التكامل العلمي الميتافيزيقي-دار الفارابي للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2012م.
12. عبد العزيز بومسيلي، و وآخرون، أقول الحقيقة(الإنسان ينقض ذاته)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، دط، 2004م.
13. عبد الكريم بكار، اكتشاف الذات(دليل التميز الشخصي)، دار وجوه للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية-الرياض، ط4، 2010م.
14. علي حرب، خطاب الهوية(سيرة فكرية)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، ط2، 2014م.
15. عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر(الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، دار العلوم للنشر والتوزيع، مصر-القاهرة، ط1، 2005م.
16. فتحي المسكيني، الكوجيتو المجروح(أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة)، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2013م.
17. كلود دوبار، أزمة الهويات-تفسير تحول- ترجمة:رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت-لبنان، ط1، 2008م.
18. كولن ويلسون، اللامنتهي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط5، 2004م.
19. محمد بكاي، أرخبيلات ما بعد الحداثة(رهانات الذات الإنسانية من سطوة النغلاق إلى إقرار الانعتاق)، الرافدين للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2017م.
20. نادر كاظم، الهوية والسرد، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 2016م.
21. نادر كاظم، تمثيلات الآخر(صورة السود في المتخيل في المتخيل العربي الوسيط)، دار الفارابي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2004م.
22. هيربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت-لبنان، ط1، 1988م.